من مصادر العلم والمعرفة في روايات الإمام الصادق عليه السلام

رسول خزائيلي
السكرتير العام لوزارة التربية والتعليم في محافظة أصفهان
m.khazaili@yahoo.com

الملخص:

تُدرس قضية المعرفة وكيفيات التدبر فيها مراراً كقضية يومية ساخنة. ومصادر المعرفة من الميادين المطروحة في هذه الساحة وقد كانت هذه القضية موضع نزاع كبير منذ القدم بين علماء الغرب والعلماء المسلمين. هذه الجدلية أدت إلى إنشاء فرق عديدة فمنها ما تلتزم بالحس وتراه السبب الوحيد للمعرفة وقد أطلق على هذه الفئة بـ ((الحسّيين))، ومنها من يرى العقل (العقليّون) ومنها من يرى القلب والفؤاد (الإشراقيّون) هو المصدر الوحيد للمعرفة البشرية. إلا أن المكاتب الإسلامية تقترب وتتلاءم بعضها مع بعض أكثر من الفرق الأخرى المتواجدة فهي تحصر مصادر المعرفة إضافة إلى مصادر أخرى في (الوحي، والفطرة، والتاريخ) هي التي تؤدّي إلى ازدياد حقل المعرفة.

فعليه، حاولت هذه الدراسة معالجة مصادر العلم والمعرفة في المشرع المعين للتشيّع والإسلام المبين ولاسيما في روايات الإمام الصادق عليه السلام وأحاديثه.

الكلمات المفتاحية: المصادر - المعرفة - الإمام الصادق عليه السلام - الوحي - القلب - العقل - التأريخ.

تحديد المسألة:

إن الإنسان لمعرفة أي أمر من الأمور يحتاج إلى مصادره ليتمكّن عن طريقه على أن يؤمّن علمه ومعرفته تجاهه. فقضية العلم بالله ومعرفته لا تشكّل استثناء، ويضطر الإنسان إلى الحصول على مصادر تعطي معرفته كمالاً إذا أراد أن يعرف الله سبحانه وتعالى وإذا أراد أن يبصر العالم الذي يحيطه.

فترد مصادر معرفة الله سبحانه وتعالى فيما يلي وذلك احتذاء برؤية الإمام الصادق عليه السلام.

١ـ الوحي السماوي.

إحدى طرق معرفة العالم الـ فوق مادي الخارق هو الوحي. فإذا أثبتنا أن البشر يتمتع بإدراك مميز معنون بالوحي ـ الإدراك الصائب الذي لن يجد الخطأ إليه سبيلاً ـ عندئذ نتمكن من القول بأن الوحي بفحواه يقدر على أن يطلعنا على العالم الذي يبتعد عن الحواس. (سبحاني، ١٣٨٣، ج٢، ص٢٣).

قضية الوحي لها أصداء واسعة في القرآن المجيد وهنالك مئات الآيات التي تشير إلى قضية الوحي كمصدر عظيم للعلم والمعرفة، لم يكن هذا المصدر قد طرح في القرآن فحسب بل راح ذكره في جميع الكتب السماوية. حيث تابعي الأديان السماوية يعتبرون الوحي أهم مصدر للمعرفة؛ ذلك أن هذا المصدر ينجم عن علم الله اللانهائي بينما أخرى مصادر المعرفة ترتبط بالناس وهي لا ترد بالحسبان لضيق نطاقها وصغر حجمها إذا قورنت بالمعرفة السابق ذكرها. تقول الرؤية الإلهية: أرسل الله سبحانه وتعالى كل حين ما يحتاج إليه الناس سلوكاً في درب الكمال والسعادة على يد رجال الوحي أي الأنبياء العظام هداية للعباد؛ وتعني الهداية عرض الطريق. في الحقيقة إذا كان عقلنا يماثل كشافاً للنور أو منوراً ذا قوة خارقة وكذلك الفطرة والضمير والحاسات الجسدية كل على حدها ماثلت منورات أخرى، فالوحي بدأ يماثل الشمس المنيرة التي تضيئ العالم بأسره. فعليه يعد الوحي عند الموحّدين العابدين لله تعالى أهم مصدر للمعرفة وأيسره. (مكارم شيرازي، ١٣٨٩، ج١، ص٢٧٣).

إن القرآن الكريم أهم نموذج للوحي وأثرى وأغنى معجزة شهدها العالمين. وفي كلام رجال الدين العظام، يعدّ القرآن كأكبر مصدر للمعرفة. فإذا أردنا دراسة أهمية الوحي ومعالجة ثرائه لابد لنا من أن نلجأ إلى أبرز مصداقه أي القرآن الكريم وحيث قال الإمام الصادق عليه السلام رداً على استفهام رجل سأله: ((إِنَّ رَجُلًا سَأَلَ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ مَا بَالُ الْقُرْآنِ لَا يَزْدَادُ عِنْدَ النَّشْرِ وَ الدِّرَاسَةِ إِلَّا غَضَاضَةً فَقَالَ لِأَنَّ اللَّهَ لَمْ يُنْزِلْهُ لِزَمَانٍ دُونَ زَمَانٍ وَ لَا لِنَاسٍ دُونَ نَاسٍ فَهُوَ فِي كُلِّ زَمَانٍ جَدِيدٌ وَ عِنْدَ كُلِّ قَوْمٍ غَضٌّ إِلَى يَوْمِ الْقِيَامَةِ)) فيقول: لماذا القرآن يبقى طريّاً ناضجاً طازجاً مهما وضع تحت مجهرية الدرس والتحليل والمعالجة بل يزداد كل حين طلاوة وحلاوة؟ فبيّن الإمام عليه السلام أن الله سبحانه وتعالى لم يجعل القرآن في حدود زمن محدد ولم ينزله لقوم دون الآخر فهذا هو السبب في هذه الحلاوة والنضوج

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

السرمدي الذي يتمتع به القرآن الكريم إلى قيام القيامة. (مجلسي، ١٤٠٤، ج٨٩ ص١٥).

وفي كلام آخر يعرّف الإمام الصادق عليه السلام مصدر الأئمة للمعرفة على أنه هو الوحي ويبيّن أنه قد اقتبس أرفع علومه وأعلاها رتبة من الوحي السماوي؛ إذ يقول: ((مَبْلَغُ عِلْمِنَا ثَلَاثَةُ وُجُوهٍ مَاضٍ وَغَابِرٌ وَحَادِثٌ فَأَمَّا الْمَاضِي فَمُفَسَّرٌ وَأَمَّا الْغَابِرُ فَمَزْبُورٌ وَأَمَّا الْحَادِثُ فَقَذْفٌ فِي الْقُلُوبِ وَنَقْرٌ فِي الْأَسْمَاعِ وَهُوَ أَفْضَلُ عِلْمِنَا وَلَا نَبِيَّ بَعْدَ نَبِيِّنَا)) (الكليني، ١٣٥، ج١، ص٢٩٦) أي يتمنطق علمنا (ومصادره) في ثلاثة أنواع: الماضي والمستقبل والحادث الحاضر؛ فالماضي قد جاء إلينا عن طريق النبي صلى الله عليه وآله والأئمة السابقين، والمستقبل هو المرقوم المكتوب (التعاليم التي وصلت إلينا تذكاراً للمعصومين السابقين) وأما الحادث فهو ما يقع في أفئدتنا وقلوبنا وهو الصوت الخافض الذي يهمس في أذننا وهذا أفضل علومنا، إلا أنه لا نبي بعد نبيّنا، ما أتى نبياً بعده ولم يأت.

فالإمام الصادق عليه السلام في كلامه هذا يربط نفسه بعلم خارق يفوق عالم الطبيعة ويلج في إطار ماوراء الوجود. العلم الذي يتسرب في قلبه من دون أن يكون للحاسّات الظاهرية والعقل شأن في الأمر وهذا هو الوحي. تتمّة لهذا المعنى ذكر حديث آخر عن أبي بصير عن الإمام الصادق عليه السلام إذ يقول: ((سَأَلْتُ أَبَا عَبْدِ اللَّهِ عَنْ قَوْلِ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَ يَسْئَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي قَالَ خَلْقٌ أَعْظَمُ مِنْ جَبْرَئِيلَ وَمِيكَائِيلَ وَهُوَ مَعَ الْأَئِمَّةِ يُسَدِّدُهُمْ وَلَيْسَ كُلُّ مَا طُلِبَ وُجِدَ)) (كليني، ١٣٨٥، ج١، ص٢٧٣) يقول أبو بصير: سألت الإمام عن كلام الله سبحانه وتعالى إذ يقول: (الشورى /٥٢) قال: ((الروح هو خلق من خلائق الله كبير حتى يزداد كبراً عن جبرئيل وميكائيل؛ وهو كان يرافق رسول الله ويلازم مَن بعده ومهمته هي تسديد النبي والأئمة وتأييدهم)).

يستنتج جليّاً من كلام الإمام الصادق عليه السلام أنّ الوحي هو مصدر ثمين للمعرفة بين الأئمة الأطهار وبه كان الأئمة يكسبون الفيوضات الإلهية ويحتظون بها.

٢ـ العقل والنهى.

من منظور القرآن ورؤيته يفتقد الإنسان أي علم مسبق تجاه كائنات العالم الخارجي أيّاً كانت، ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾، وقد نفى العلم الحصولي للإنسان آونة ولادته انطلاقاً من هذه الآية الشريفة، ويذكر استمراراً لهذه الآية: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُم مِّن

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ﴾ وفيها إشارة إلى الولادة، والجملة ﴿لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا﴾، حال من ضمير الخطاب، أي خلقكم من أرحام أمهاتكم وأنتم تجهلون المعلومات التي حصلتم عليها في مستقبل حياتكم عن طريق الحس، والخيال، والعقل. (طباطبايي، د.ت، ج١٢، ص٦٥١).

العقل لغة هو الجمع والشدّ وهذه العلاقات الإدراكية التي يمتلكها الإنسان وخضع لقبولها والعهد الذي عقده تجاهها تعنون بالعقل، ويطلق العقل أيضاً على جميع مدركات البشر والقوى التي يستشعر بها ويجد طريقه إلى الخير أو الشر على يدها ويقدر بها على تمييز الحق عن الباطل. (طباطبايي، د.ت، ج ٢، ص٧١).

وصولاً إلى المعرفة يحتاج الإنسان إلى نوع من المعالجة والتحليل وأحياناً يكون بأمسّ حاجة إلى أنواع التحاليل والدراسات الدقيقة. والدرس والتحليل مهمة العقل. الدراسات والتحاليل العقلية هي تصنيف المقولات المتباينة. تنجز هذه المهمة على يد التجربة كما اصطلح عليها وكذلك عملية التركيب الخاصة تتمّ على يد المنطق، فالشؤون التحليلية التركيبية يتكفّلها المنطق. (مطهري، ١٣٨٨، ص٣٩).

العقل هو مصباح الدين وسراجه، هو مصدر المعرفة الدينية للبشر وهو ما يكشف الغطاء عن المضامين الاعتقادية والأخلاقية والقواعد الفقهية والقانونية الحقوقية للدين. (جوادي آملي، ١٣٨٧م، ص٥) يقول الإمام الصادق عليه السلام: ((العقل هو عماد حياة الإنسان ووجوده، الكياسة، والإدراك، والعلم من ميزات العقل وصفاته؛ فكلما العقل شحّذ قواه بنور غير مادي (معنوي) سيصبح الإنسان حافظاً للعلم، وقاداً، كيّساً، فهيماً. يجد الإنسان الكمال بالعقل، والعقل هو الدليل وهو علة البصيرة ومفتاح الفرج في شؤون الإنسان وأموره)). (حكيمي، ١٣٨٣، ج ١، ص٧٦). العقل طاقة يهبها الله سبحانه وتعالى كما أن العقل يأخذ على عاتقه مهمة الإدراك؛ ويدرك أحياناً ((ما يكون وما لا يكون))، الأمور التي تتعلق بالحكمة النظرية وفي أحايين أخرى يدرك ما يجب وما لا يجب، الأمور التي ترتبط بالحكمة العملية. (جوادي آملي، ١٣٨٧، ص ١٣٢).

إنّ العقل من منظور الإمام الصادق عليه السلام يشكّل بناء شخصية الإنسان؛ حيث يقول: ((دِعَامَةُ الْإِنْسَانِ الْعَقْلُ وَالْعَقْلُ مِنْهُ الْفِطْنَةُ وَالْفَهْمُ وَالْحِفْظُ وَالْعِلْمُ وَبِالْعَقْلِ يَكْمُلُ وَهُوَ دَلِيلُهُ وَمُبْصِرُهُ وَمِفْتَاحُ أَمْرِهِ)) (كليني، ١٣٩٠، ج١، ص٢٠) فالعقل أساس شخصية الإنسان.

وقد ينشأ عنه الذكاء والفهم والذاكرة والعلم، وقد يكتمل الإنسان في ظلال العقل والعقل هو الدليل والهادي وفاتح أبواب العلوم والكمالات أمام الناس.

وقد يعرَّف العقل العملي في كلام الإمام الصادق عليه السلام على أنّه: ((الْعَقْلُ قَالَ مَا عُبِدَ بِهِ الرَّحْمَنُ وَاكْتُسِبَ بِهِ الْجِنَانُ)) (الحر العاملي، ١٦٠٩ ق، ج ١١، ص٢٠٥) فالعقل هو ما يعبد به الله سبحانه وتعالى ويُحصل به الجنّة.

والسبب في ذكر العقل في عداد الحجة الباطنة لله سبحانه وتعالى للبشر بجانب الحجة الظاهرة ـ الأنبياء والأئمة عليهم الصلاة والسلام ـ ((إِنَ لِلَّه عَلَى النَّاسِ حُجَّتَيْنِ حُجَّةً ظَاهِرَةً وَحُجَّةً بَاطِنَةً فَأَمَّا الظَّاهِرَةُ فَالرُّسُلُ وَالْأَنْبِيَاءُ وَ الْأَئِمَّةُ ع وَأَمَّا الْبَاطِنَةُ فَالْعُقُول)) (الحر العاملي، ١٦٠٩ق، ج١٥، ص٢٠٩) هو أن الأحكام تَتْبع المصالح والمفاسد وتنجم عنها وتكون معلولة لها وتقع هذه المصالح والمفاسد جلّ الأحيان في متناول إدراك البشر. فعقل الإنسان وحده يتمكن من كشف قواعد الإسلام وقوانينه. وهذا هو ما يطلق عليه بالحجة الباطنة التي صرحّت به الرواية التي ذكرت أعلاه. (مطهري، ١٣٨٩، ج٢، ص٢٧).

يقول الإمام الصادق عليه السلام: ((مَنْ كَانَ عَاقِلًا كَانَ لَهُ دِينٌ وَمَنْ كَانَ لَهُ دِينٌ دَخَلَ الْجَنَّةَ)) (الحر العاملي، ١٦٠٩، ج ١٠، ص٢٠٩) فالعاقل متديّن ومن يتديّن بدينه يدخل الجنّة، فالجنة منزل العقلاء. والملحوظ أن العقل ها هنا هو العقل الحقيقي الصادق من دون شيطنة الشياطين التي تتراءى في أعمال رجال السياسة في العالم، الجبّارين الظالمين ما قال فيها الإمام الصادق عليه السلام ((شبيهة بالعقل وليست بالعقل)) (كل ١٣٨٥، ج١، ص١١) أي إن أعمالهم تماثل العقل وتشبهه إلا أنها تبتعد عن حقيقته بمسافات بعيدة فالعقل بريء منها.

٣ ـ الحواس.

تشكّل الحواس أوسع أدوات المعرفة وأشمله. ومنذ غابر الأزمان حتى هذا الزمان قسّمت الحواس جلّ الأحيان إلى الحواس الظاهرة والحواس الباطنة. فتوفّر الحواس الظاهرة أرضية واسعة لمعرفة العالم الطبيعي والبيئة المتواجدة للإنسان. معرفة ألوانها، روائحها، وأذواقها. وتقدّم الحواس الباطنة معلومات كثيرة عن نفس الإنسان، أفعاله، حالاته، وانفعالاته؛ معلومات عن الأتراح والأفراح، عن الآلام واللذات، عن العزائم والمقاصد، وعن النفور والمحبة و.... (حسين زاده، ١٣٨٢، ص٣٧)

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

يعطي هذا المصدر للإنسان أدنى مستويات المعارف وأوضحها من هذا العالم الموجود، فإذا انغلقت نافذة من نوافذ هذا المصدر يُمنع الإنسان عن تلك المعرفة التي تخص تلك النافذة ويسلب عنه معارفها، وهنالك قول شهير في هذا الحقل يبين هذه القضية جلية: ((من فقد حس))؛ يعني هذا الكلام أنه من فقد حسّاً من أحاسيسه فَقَدْ فَقَدَ علماً بعينه؛ فيضرب المثل بالشخص الذي كُفّ بصره منذ ولادته فهو يفتقد العين، كما أنه يفتقد جميع العلوم والمدركات والمعارف التي تخص حاسّة البصر ولن يتمكن من التمتع بها أيّاً كانت. (محمدي ري شهري، ١٣٧٠، ص١٩٩).

ويشير القرآن الكريم إلى هذه الملحوظة على أن الحواس تُعرف كمصدر للمعرفة والعرفان؛ قائلاً: ﴿وَاللَّهُ أَخْرَجَكُمْ مِنْ بُطُونِ أُمَّهَاتِكُمْ لَا تَعْلَمُونَ شَيْئًا وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالْأَبْصَارَ وَالْأَفْئِدَةَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (النحل/٧٨) تعني هذه الآية أن الله سبحانه وتعالى خلقكم وأخرجكم من بطون والداتكم إذ لا علم لكم بما يحيط بكم ووهبكم الآذان والعيون، والقلوب علّكم تشكرونه وتقدّرون هذه النعم.

أدّى التطور العلمي في الغرب الذي يجعل الحس والتجربة الحجر الأساس للعلوم ومنطلق المعارف الوحيد إلى اكتفاء فئة من أهل المعرفة والكمال، القائلين بالأمور الماورائية قولاً سديداً إلى المعرفة الحسية والتأثر بهذه الرؤية تأثيراً جعلهم لا يحيدون عنها حتى في المعارف الماورائية الـ لامادّية.

الركون إلى الفلسفة الحسيّة، وهذه الفلسفة تعني الاتكال على الحس واصطفاء الحس كمصدر متأصل للمعرفة من دون غيره من المصادر وتعد هذه الفلسفة نوعاً من الفلسفة الماديّة التي تسحب قناع العقل والنُّهى وجميع آلياته عن وجهها ولا تسكب اعتمادها إلا على آليات الحس وأسبابه فحسب. (سبحاني، ١٣٨٣، ص١٠).

يعرّف الإمام الصادق عليه السلام الحواس الخمسة كمصدر للمعرفة المصادر التي لا تتمكن من أن تعطي الكفاية في حد ذاتها ولا تقدر على الإكتمال وتقديم تمام المعرفة للبشر. فلا يرى الإمام الحس مصدراً للمعرفة إلا إذا رافقه دليل من العقل وسار الحس مسيره على هداية من أنوار سراج العقل المنير.

كان أبو شاكر[١] مماثلاً في عقيدته حيال معرفة الوجود ببعض من الفلاسفة الغربيين الذين يعتبرون الحواس مصدراً موحداً لمعرفة الإنسان للعالم الخارجي الذي يحيط بهم. ترى هذه الفئة أنّ ما نعلمه من الأمور الخارجية عن طريق الحواس والعقل والذهن تقع في تيار الإدراكات الحسية موقعاً انفعاليّاً فهي ترى أنه لابد لها من أن ترضخ لقبول ما وصل إليها عن طريق الحاسّات[٢].

أجاب الإمام الصادق عليه السلام ردّاً على رؤية أبي شاكر كلاماً لطيفاً دقيقاً أخّاذاً رائعاً. فهو انتباهاً إلى هذه الملحوظة التي تقول أنّ المصادر الحسية تدخل ضمن مصادر الإدراك والمعرفة، بيّن أنّ هذا المصدر يتمّ اعتباره كمصدر كامل للمعرفة إذا بقي تحت راية العقل وظلاله الوارفة. فيقول الإمام الصادق عليه السلام: ((ذكرت الحواس الخمس وهي لا تنفع شيئاً بغير دليل كما لا نقطع الظلمة بغير مصباح)) (شيخ صدوق، ١٣٩٢، ص٣٠١) أي أوردتَ الحواس الخمسة كالمصدر الوحيد للمعرفة بينما هي لا تنفع معرفة للإنسان ولا تلعب دوراً جديراً في العرفان من دون هدي من (العقل) فمثله مثل الظلمات التي لا رادّ لغطائها إلا ضياء السراج.

٤ـ الفطرة.

إن الإنسان عند اجتيازه سن البلوغ والمراهقة يتبصّر بحلقات من الحقائق من دون أن يلازم معلماً أو يرافق أستاذاً. يدرك القضايا البديهية جليّاً؛ نحو: استحالة اجتماع الضدين أو النقيضين، وكذلك يدرك حسن الأشياء أو قبحها، يدرك شناعة الظلم وقبح الطغيان ويأخذ حسن العدل وجمال الإحسان بعقله الوقاد.

يستشعر في صميم وجوده بصلة وطيدة إلى مبدأ نزيه وبعبارة أخرى يمكن القول بأنه يتمايل بأعماق ضميره إلى الله سبحانه وتعالى. وكل هذه الأمور إن دلّت، تدلّ على استحضار مصدر عظيم للمعرفة في ضمير الإنسان وباطنه ما نطلق عليه "الفطرة". (مكارم شيرازي، ١٣٨٩ ج١، ص١٩٠ - ١٩٦).

والفطرة لغة تأتي من المادة (ف ط ر) وتعني الانشقاق، وفتح الشيء، وأسبابه وأداته. ويكون هذا الانشقاق والفتق فتقاً عامودياً يتمّ في الطول ومن هنا نجم معنى ((ف ط ر)) على أنه الإنشاء والخلق ذلك أنّ الخلق والإنشاء الإلهي يماثل شقّ ستار الظلام وفتقه وأنّ تجلي

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

الوجود وإبرازه يعتبر كيفاً محتملاً. إلا أن هذا الإنشاء الذي يعبر عنه بالفطرة هو إنشاء إبداعي ابتداعي أي مُبتَدَع. الفطرة تعني الجبلّة وتخصّ بإنشاء الإنسان وخلقه والأمور الفطريّة تعني ما تقتضيه كيفية خلق الإنسان وإنشائه وهي أي الفطرة تعد القاسم المشترك بين الناس أجمعين. (جوادي آملي، ١٣٧٩، ج١٢، ص٢٣ - ٢٦).

وقد رويت رواية عن الإمام الصادق عليه السلام في هذا المجال حيث قال: ((زرارة عن أبي عبد الله في قول الله عز و جل ((فطرة الله التي فطر الناس عليها، قال فطرهم على التوحيد.)) (مجلسي، ١٤٠٤، ج ٣، ص ٢٧٧)؛ فيسأل زرارة عن هذه العبارة القرآنية ﴿فِطْرَةَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا﴾ (الروم/٣٠)، فيقول الإمام الصادق عليه السلام: إنّ الله سبحانه وتعالى خلق جميع الناس على التوحيد.))

إن الإنسان كسائر أنواع المخلوقات، مفطور على الفطرة التي تهديه إلى إتمام نواقصه وقضاء حوائجه، الفطرة التي تلهمه بما ينفعه أو يضرّه؛ كما قال سبحانه وتعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا * فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَاهَا﴾ (الشمس /٧ و ٨) وقد جهّزه الله سبحانه وتعالى بجهاز جسمه إنجازاً للأعمال التي يكون بأمس حاجة إليها، إذا ذكر قائلاً: ﴿ثُمَّ السَّبِيلَ يَسَّرَهُ﴾ (عبس/٢٠) تعني الآية أنه وفّر وسهّل سبيل الحياة والمعاش له. فالإنسان يتميز بفطرته المميزة التي تهديه وترشده إلى سنة الحياة الخاصة ومنهج محدد ينتهي إلى هدف وغاية منشودة معيّنة. الطريق الذي لا يمكن له أن يتّخذ من دونه سبيلاً. (الروم/٣٠) والإنسان الذي يعيش في هذه النشأة نوع موحد في أفراده لا يختلف بعضه عن بعض وهو لأجل هندسته النفسية والجسدية يتصف بأرباح وخسارات مماثلة موحّدة. فالإنسان بما أنه إنسان لم يكن أمامه إلا طريقاً منفرداً للسعادة وطريقاً موحّداً للشقاوة؛ فعليه، لابد له في ساحة العمل أن تقدّر له سُنّة واحدة ليس غير وأن يرشده هاد موحد إلى غاية منشودة ثابتة والطريق الذي يغور في خضمه ويسلك في أغواره لابد أن يكون الفطرة ونوع الخلقة. (طباطبايي، د. ت، ج١٩، ص ٢٩١).

فالإمام الصادق عليه السلام يذكر في معنى الجمل السابق ذكرها قائلاً: ((إن الله عزّ وجلّ خلق جميع الناس خلقاً تطابق فطرته التي فطرها، لم يؤمنوا بشريعة ولم ينكروا شريعة، إلى أن بعث الله عز وجلّ رسلاً يهدون العباد إلى الإيمان به وهنالك منهم من آمن واهتدى

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

بهدي من الله ومنهم من لم يهده الله.)) (كليني، ١٣٦٥، ج٢، ص٦١٩).

وكذلك الإمام عليه السلام في الآية ((٣٠/ الروم)) يعرف الفطرة على أنها التوحيد: ((هشام بن سالم عن أبي عبد الله لا قال، قلت فطرة الله التي فطر الناس عليها قال: التوحيد.)) (الكليني، ١٣٩٥، ج٢، ص١٢).

عبارة ((على التوحيد)) التي طرحت في هذه الرواية، تدلّ على أن الإنسان حين ولادته يتميز بمعرفة وضعت في قرارة نفسه، ولاشك أنه إذا كان على الإنسان أن يحصل على هذه المعرفة في الدنيا أو له موهبة على اكتسابها لكانت عبارة ((للتوحيد)) أقرب من المقصود وأنسب لهذا الحديث، ذلك أنه لا يصح التعبير بـ ((على التوحيد)) لعالم الممكنات والمواهب والطاقات الكامنة على ما يبدو. (قلي پور، ١٣٨٧، ص٣٣). شرحاً لما ورد في السابق يشار إلى ما روي عن الإمام الصادق عليه السلام بتواتر إذ سئل عن الإمام: ((هَلْ جُعِلَ فِي النَّاسِ أَدَاةٌ يَنَالُونَ بِهَا الْمَعْرِفَةَ، قَالَ: لَا. قُلْتُ: فَهَلْ كُلِّفُوا الْمَعْرِفَةَ))(٣)؟ أي هل وضع في الناس وسيلة اكتساب المعرفة والحصول عليها؟ ((قال: فقال: لا))، فكانت الإجابة: لا. ((قُلْتُ: فَهَلْ كُلِّفُوا الْمَعْرِفَةَ))؟ أي هل توجّب عليهم اكتساب المعرفة والحصول عليها؟((قال: لا على الله البيان لا يكلف الله نفسا إلا وسعها ولا يكلف الله نفسا إلا ما آتاها. قال: وسألته عن قوله وما كان الله ليضل قوماً بعد إذ هداهم حتى يبين لهم ما يتقون. قال: حتى يعرفهم ما يرضيه وما يسخطه:))؛ أي لا، البيان على عاتق الله سبحانه وتعالى، ولا يكلّف الله شخصاً ما لا يطيقه ولا يكلّف الله أحداً إلا بما أتاه من المواهب وما وهبه من المقدرات. (كليني، ١٣٩٥، ج١، ص١٩٣).

يستنتج انطلاقاً من الروايات السابقة أن الإسلام بما فيه وضع في قرارة نفس الإنسان وجبلّته، من قضية التوحيد إلى قضية قيادة القوّاد الإلهيين و...

٥ ـ العرفان والشهود

تستجد رؤية الإنسان وإدراكاته أحياناً حيث يتمكن بهذه الرؤية المستجد أن يلج في غياهب العالم ويشاهد قسماً منه؛ وبعبارة أدق، يمكن القول بأنه تنكشف الحجب وتتجلى أمامه بعض الحقائق الكامنة للعالم وقد يدركها كما يدرك الإنسان بعينه ما يحسه ويجسّه بأصابعه، بل وأحياناً تصبح رؤيته لهذه الغياهب أوضح وأوثق، وقد يطلق على هذه الحالة

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

بالمكاشفة أو الشهود الباطني. وقد يشير القرآن الكريم بعد ما يبين أنه قد أريت ملكوت السماوات والأرض للنبي إبراهيم عليه السلام إلى حقيقة هي أنه: بما أن الإنسان لا يستطيع مشاهدة هذه الحقائق كلّها بعين رأسه وبراهين عقله فيتبين من هنا أن الله سبحانه وتعالى عرض للنبي إبراهيم عليه السلام هذه الحقائق، عن طريق الشهود الباطني وإزاحة الستار عنها، الحقائق التي تتوارى عن عيوننا في الحالات الاعتيادية بأغطية من الحجب. (مكارم شيرازي، ١٣٧٩، ج ١، ص ٢٠٨) يقول القرآن الكريم: ﴿وَكَذَلِكَ نُرِي إِبْرَاهِيمَ مَلَكُوتَ السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ وَلِيَكُونَ مِنَ الْمُوقِنِينَ﴾ (الأنعام/٧٥).

يقول الإمام الصادق عليه السلام في تفسير هذه الآية: ((كُشِطَ لِإِبْرَاهِيمَ السَّمَاوَاتُ السَّبْعُ حَتَّى نَظَرَ إِلَى مَا فَوْقَ الْعَرْشِ وَكُشِطَ لَهُ الْأَرْضُ حَتَّى رَأَى مَا فِي الْهَوَاءِ وَفُعِلَ بِمُحَمَّدٍ ـ صلى الله عليه وآله ـ مِثْلُ ذَلِكَ وَإِنِّي لَأَرَى صَاحِبَكُمْ وَالْأَئِمَّةَ مِنْ بَعْدِهِ قَدْ فُعِلَ بِهِمْ مِثْلُ ذَلِكَ)) (المجلسي، ١٤٠٤ ق، ج ١٢، ص ٧٢) أي: قد أزاح الله سبحانه وتعالى حجب السماوات السبع أمام إبراهيم عليه السلام لينظر إلى ما يفوق العرش، وكذلك سحب حجب الأراضي السبع أمامه وفعل هذا بـ محمد صلى الله عليه وآله... والأئمة التي جاؤوا من بعده.

وفي حديث عن الإمام الصادق عليه ورد أن النبي صلى الله عليه وآله التقى بأحد أصحابه باسم حارثة فقال:

((كَيْفَ أَنْتَ يَا حَارِثَةَ بْنَ مَالِكٍ فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله مُؤْمِنٌ حَقّاً فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله لِكُلِّ شَيْءٍ حَقِيقَةٌ فَمَا حَقِيقَةُ قَوْلِكَ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ صلى الله عليه وآله عَزَفَتْ نَفْسِي عَنِ الدُّنْيَا فَأَسْهَرَتْ لَيْلِي وَ أَظْمَأَتْ هَوَاجِرِي وَ كَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى عَرْشِ رَبِّي- [و] قَدْ وُضِعَ لِلْحِسَابِ وَكَأَنِّي أَنْظُرُ إِلَى أَهْلِ الْجَنَّةِ يَتَزَاوَرُونَ فِي الْجَنَّةِ وَ كَأَنِّي أَسْمَعُ عُوَاءَ أَهْلِ النَّارِ فِي النَّارِ فَقَالَ لَهُ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وآله عَبْدٌ نَوَّرَ اللَّهُ قَلْبَهُ أَبْصَرْتَ فَاثْبُتْ فَقَالَ يَا رَسُولَ اللَّهِ ادْعُ اللَّهَ لِي أَنْ يَرْزُقَنِي الشَّهَادَةَ مَعَكَ فَقَالَ- اللَّهُمَّ ارْزُقْ حَارِثَةَ الشَّهَادَةَ))١٦٩.

تُكسب المعارف العرفانية عن طريق الشهود وتتحقق مباشرة من دون وساطة. ولن يلج الخطأ في المعرفة الحضورية الشهودية خلافاً للخطأ الذي يوجد في الصدق والكذب بوساطة أو سبب؛ (حسن مجتبى، ١٣٨٧، ص١٢) الإدراك الحقيقي في رؤية العارف يفوق

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

الإدراك العقلاني وإنما هو شهودي قلبي وقد يرى العارف أنّه لا يعطي طريق الحس والعقل الكفاية للحصول على المعرفة واكتسابها والطريق الوحيد لفهم حقائق العالم وإدراكها هو تنقية الروح وانعكاس أنوار الحقيقة في مرآة قلب الإنسان تبعاً لذلك. وهذه الرؤية تخالف الأخلاق الفلسفي الذي يسلك مسلكاً عقليّاً وصولاً للمعرفة وإدراكها؛ المنهج الذي يؤكد على أن الإنسان هو التفكير المحض والمعرفة العقلية هي غاية نمو الإنسان وترعرعه. ومن هذا المنظور الإدراك هو الفهم العقلاني فعليه، ما تجعله هذه الرؤية في جدول أعمالها هو النمو العقلي للإنسان ليس غير. (جداري عالي، ١٣٨٨، ص١٠١) .

المعرفة بصورة شاملة ومعرفة الله بصورة خاصّة قد نسبت إلى القلب. يقول الجيلاني: ((القلب فصار مسكنة للتوحيد والمعرفة والعلم)) (الجيلاني، ١٣٠٦، ص١٩٦).

٦ـ التأريخ.

أهم حصاد الإنسان وثماره هو تجاربه؛ التجارب التي تتمكن من أن تفتح أمامه أبواباً لحياة فضلى واجتهاد أكبر واكتمال أسمى، إلا أن عمر الإنسان قصير والدنيا ممرّ للأخرى!

فإذا تمكنا من حشد تجارب الناس الذين عاشوا فترة زمنية واحدة مرة واحدة وفي مكان واحد، وفي مرحلة أعلى إذا تمكنا من حشد تجارب جميع الناس في جميع القرون والأعصار بصورة مدونة منسقة، لا شك قد حصلنا على منجم عظيم للمعلومات والمعارف. التاريخ يقدّم لقارئيه مجموعة لتجارب الناس أجمعين، تجربة لجميع القرون والأعصار وذلك شرط أن يكون التاريخ قد نسّق كاملاً وصحيحاً. ولئن كان التاريخ ناقصاً ليشمل أيضاً مجموعة من تجارب العصور الغابرة والأسلاف الماضية. (مكارم شيرازي، ١٣٨٩، ج١، ص١٧٦).

يكتب الشهيد مطهري؛ في قضية المعرفة عندما يصل إلى التاريخ قائلاً: ((يعني التاريخ مجتمعاً إنسانيّاً جارياً سارياً، وقد يعرض القرآن الكريم التاريخ بصراحة وصرامة للمطالعة والتدقيق، فيكون التاريخ نفسه مصدراً للمعرفة)) (مطهري، ١٣٧٨، ص٧٨).

للإمام الصادق عليه السلام كلام فصيح عن التاريخ حيث يدعو الناس إلى الاتّعاظ منه ويعرّف التاريخ على أنه سبب من أسباب العلم والمعرفة؛ فيقول الإمام: ((قد خرج النبي داود عليه السلام يوماً من المدينة وكان يتلو الزبور، كان يتلو الزبور وكانت الجبال والأحجار والطيور

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

والحيوانات المفترسة تناشده وترافقه وتغني معه، فواصل طريقه إلى أن وصل إلى جبل يعيش على قمته نبيّ كان يُدعى حزقيل، بعدما سمع حزقيل همس الجبال والطيور وتمتمتها أدرك أن النبي داود عليه السلام قد حضر هناك. قال له داود: هل تسمح بأن نأتيك إلى الأعلى؟ قال: لا؛ فبكى داود، فأوحى الله سبحانه وتعالى إلى حزقيل قائلاً لا تَلُم داود ولا توبّخه واطلب مني العافية، فقام حزقيل وأخذ بيده وجاء به إلى مقامه. فسأله داود: هل عزمت على معصية الله لحد الآن؟ قال: لا. قال: هل وجد في نفسك من العجب والاغترار لما عبدتَ ربّك؟ قال: لا. قال: هل ملِتَ وتشوقّت إلى الدنيا حتى ترغب في شهواتها وملاهيها؟ قال: نعم. قد يخطر بفؤادي. سأل: فماذا تفعل تلك الآونة؟ قال: أدخل هذا الوادي وأتّعظ به. فدخل داود هذا الوادي، فرأى هناك سريراً حديديّاً، عليه جماجم بالية وعظاماً رميمة ولوحاً مكتوباً عليه. فقرأته. فعلمت أنّ هذا كلّه يتعلّق بمَلِكٍ مقتدر حكم سنين طويلة، ووفّر مدن كثيرة، ومَلَكَ حريم واسع فوصل أمره أخيراً إلى ما ترى عين الناظر....)) (مجلسي، ١٦٠٦، ج ١٤، ص٢٢).

يتضمن حديث الإمام الصادق عليه السلام ملاحظات عديدة حيث التدقيق فيها يؤدّي إلى معرفة متعمقة في الإنسان. وكل من يتدبر في هذا الكلام بلحظة ويفكر فيه بدقّة ليجد أغوار نظرة الإمام الصادق عليه السلام العميقة المتجذرة من قول هذا الحديث وروايته.

النتيجة:

تتمتع المعرفة في رؤية الإمام الصادق عليه السلام بمكانة مميزة. فيعرّف الإمام مصادر الحكمة على أنها الحواس بهَدْي من العقل وإرشاد منه، والفطرة التي وضعها الربّ سبحانه وتعالى في قرارة نفس الإنسان ومكامن وجوده، ثم الكشف والشهود الذي يفتح لقلب الإنسان باباً إلى ما وراء الطبيعة، والتاريخ الذي يُري مواعظ الأسلاف السالفة. هذه هي مصادر المعرفة التي تزيد الإنسان معرفة تجاه العالم إلا أن الوحي هو أغنى وأثرى مصدر للمعرفة في رؤية الإمام الصادق عليه السلام وقد أشرقت أنواره من قبل الله سبحانه وتعالى إلى قلبه وينجم هذا المصدر عن علم الله اللانهائي.

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

هوامش البحث

(١). في شخصية أبي شاكر ونقاشه مع الإمام الصادق عليه السلام. أنظر: ((بحث آزاد در اسلام؛ للمؤلف: محمد محمدي ري شهري، ص ٤٤)).

(٢) . للحصول على المزيد من المعلومات في آراء الفلاسفة الغربيين في قضية الإدراك؛ أنظر: بررسي مساله شناخت؛ للمؤلف: علي شريعتمداري، ص٥٨.

(٣) . ورد هذا الحديث بتواتر في المصادر الروائية. أنظر. بحار ج ٥ ص ٢٢١-٢٢٢-٢٢٣-٣٠٢، التوحيد ص، ٤١٤ محاسن /ج١/ص٢٧.

قائمة المصادر والمراجع

القرآن الكريم

١.جداري عالي، محمد(١٣٨٨)، ماهيت و جايگاه قلب در عرفان اسلامي، قبسات، سال چهاردهم، شماره ٥٤.

٢.جوادي آملي، عبدالله(١٣٧٩)، تفسير موضوعي قرآن(فطرت در قرآن كريم)، قم: اسراء، چاپ دوم، ج١٢.

٣.________، _____ (١٣٧٩)، تفسير موضوعي قرآن(معرفت شناسي در قرآن كريم)، قم: اسراء، چاپ دوم، ج١٣.

٤._____، _____ (١٣٧٨)، دين شناسي، قم: اسراء: چاپ پنجم.

٣.الجيلاني، عبدالقادر(١٣٠٤ق)، فتح الغيب هامش بهجت الاسرار و معدن الانوار في مناقب القطب الرباني، تاليف نورالدين علي بن يوسف اللخمي الشطنفي الشافعي، مصر، البابي الجلبي.

٤. الحر العاملي، حسن بن محمد(١٤٠٩ق) وسائل الشيعة إلي تحصيل معارف الشريعة، قم: مؤسسة آل البيت.

٥. حسن، مجتبى، ايجاد حسين(١٣٨٨ش)، نقش معرفت شناسي در معرفت ديني، كوثر معارف، سال پنجم، شماره ٩.

٦. حسين زاده، محمد(١٣٨٢)، مباني معرفت ديني، قم: مركز انتشارات موسسه آموزشي پرورشي امام خميني، چاپ ششم.

٧. سبحاني، جعفر(١٣٧٥)، شناخت در فلسفه اسلامي، تهران: انتشارات برهان.

ISSN 1997-6208 Print
ISSN 2664 - 4355 Online

٨.___، ___(١٣٨٣)،تفسير موضوعي قرآن مجيد(منشور جاويد) قم: مؤسسة امام صادق عليه السلام، ج٢.

٩. شريعتمداري، علي(د. ت)، بررسي مساله شناخت، تهران: نشر پژوهشهاي اسلامي.

١٠.صدوق، محمد بن علي بن الحسين بن بابويه قمي(١٣٦٢)، الأمالي، تهران: كتابخانه اسلاميه، چاپ چهارم.

١١.___، ________________(١٣٩٨ق)، التوحيد، قم: انتشارات جامعه مدرسين، چاپ دوم.

١٢.____، __________(١٤١٣ق)من لا يحضره الفقيه، قم: انتشارات جامعه مدرسين، چاپ سوم.

١٣.طباطبايي، محمد حسين(بي تا) الميزان في تفسير القرآن، ترجمه سيد محم دباقر موسوي همداني، قم: دفتر انتشارات اسلامي، ج٢ و ١٦.

١٤.قلي پور، حسن(١٣٨٧)، تاملي در امكان استعداد فطرت، معرفت، سال هفدهم، شماره ١٣٣.

١٥.الكليني رازي، محمدبن يعقوب اسحاق(١٣٦٥)، اصول كافي، تهران: دار الكتب الاسلامية، چاپ چهارم.

١٦.مجلسي، محمد باقر (١٤٠٤ق) بحار الانوار، بيروت: الوفاء.

١٧.محمدي، ري شهري، محمد(١٣٧٥) مباني شناخت، قم: دار الحديث.

١٨.مطهري، مرتضي(١٣٦٨) مسأله شناخت، تهران: صدرا، چاپ چهارم.

١٩.______، ______(١٣٦٨)، اسلام و مقتضيات زمان، تهران: صدرا، چاپ هجدهم،ج٢.

٢٠.مكارم شيرازي، ناصر و همكاران(١٣٨٢)، تفسير موضوعي قرآن كريم(معرفت و شناخت)، تهران: دار الكتب الإسلامية، چاپ نهم، ج١.